

رحلة عبر تهامة وعسير وجبال الحجاز

بقلم : ويلفرد تسيجر
ترجمة الدكتور عبدالله ناصر الوليعي
أستاذ مساعد بقسم الجغرافيا

رحلة عبر تهامة وعسير وجبال الحجاز^(١)

بقلم : ويلفرد تسيجر^(٢) ترجمة : د. عبدالله ناصر الوليعي^(٣)

في عام ١٩٤٥ وبعد أن قضيت شهرين بين البيوريتانيين المتزمتين جداً^(٤) في نجد مررت سريعاً عبر تهامة في طريقى من جدة إلى جيزان . ومنذ ذلك الوقت لا زلت أتذكر هؤلاء الناس الطيبين أصحاب الوجوه الباسمة . وفي عام ١٩٤٦م وبعد أن طردني حر الصيف من الربع الخالي عدت مرة أخرى مشتاقاً لرؤية هذا العنصر الطيب .

عندما كنت موظفاً في وحدة الشرق الأوسط لمكافحة الجراد سافرت خلال شهور أبريل ومايو ويونيو لمسافة ٩٥٠ ميلاً [١٥٢٩ كم] عبر تهامة وعسير وجبال الحجاز بدءاً بالقنفذة حتى حدود اليمن ثم عدت إلى الطائف مروراً بأبها^(٥) .

بدأت رحلتى من وادى الأحسبة شمال القنفذة وكان معى حارس حكومى ، شاب من خدم الشريف ، وشابان آخران لقيادة الإبل الأربعة المستأجرة والتي يربط خطام كل منها بذنب الذى قبله على الطريقة المتبعة فى تهامة ، ولا يسمح للجمال أن ترعى بل أنها أبداً مكمنة بشبكة على شكل كيس [تسمى شامة] وعبرها يتم إطعام الإبل بوضع الذرة فيها من قبل الراعى وكذلك قصب الذرة والذى يحمل عادة على شكل حزم كبيرة على جنبات الجمل . وتأمين كميات كافية من هذا العلف غالباً ما يكون باهظ الثمن وصعب المنال . وتمتاز الإبل التهامية بأنها تستطيع حمل أحمال ثقيلة ولكنها سرعان ما تصبح ضعيفة ومقعدة عندما تسافر عبر أرض صخرية كما أنها لا تتحمل المشى فوق الصخور . وتروى هذه الجمال عادة مرة فى اليوم ومرتين فى الجو الحار . ويسافر هؤلاء العرب طوال الصيف فى الليل نائمين على الأحمال^(٦) على ظهور الجمال التى تتبع طريقها بدون تردد . ومع ذلك فقد رفضت السفر ليلاً رغم ارتفاع درجة

الحرارة نهراً إذ أن موافقتي كانت ستحرمني من فرصة المشاهدة والملاحظة والتي لا تتوافر إلا نهراً.

تتبع ورفقائي وادي الأحسبة صاعدين حتى المخوة. ويسكن في هذا السهل الساحلي فخذ العبادلة من الأشراف ولكن طبيعة هذا السهل تتحول من سهل إلى أرض مملوءة بفتات الصخور حيث لا يوجد إلا عدد قليل من القرى وبعض الزراعة. وأمّا منا بعيداً كانت تبدو الحافة الصخرية لجبال الحجاز وقريباً منا توجد قمماً شدا اليماني وشدا الشامي اللتان تتكونان من حجر الجرانيت وترتفعان إلى حدود ٨٠٠٠ قدماً وهما من معالم عفار. وتتم زراعة البن في هذه الجبال على الرغم من أنها لا تزرع في الجبال الرئيسية ناحية الشمال.

المخوة قرية بيوتها مبنية من الحجر ومن طابق واحد وفيها سوق الخميس المهم^(٣). تقع المخوة بين شدا وحافة الجبال حيث تتداخل الأودية والتلال المقطعة والتي تقع على قممها بقايا قرى قديمة جداً وهي في بلاد بنى عمر وتتبع إدارياً الظفير. وتباع في سوق الخميس البقر والغنم والماعز وبعض الإبل والحمير إضافة إلى الحبوب والقهوة والملح والأقمشة والأواني الخزفية، والحصير، والسلال والجبال، وأحجار الرحي، والخضر، والعسل، وأعشاب ذات رائحة حلوة. ويقوم رجال القبائل من غامد وزهران بزيارة هذا السوق بأعداد كبيرة متوشحين بالخناجر وكما هي العادة في كل الحجاز يقومون بتطريز ثيابهم الخارجية بأشكال مميزة ذات خطوط حمراء. ويأتى أكثرهم مكشوف الرأس ويقومون بتتويج شعورهم بعصابة من عشب ذا رائحة عطرية، وبعضهم الآخر يلبسون غترة وعقالاً مزخرفاً بخيوط من فضة أو ذهب.

بعد أن غادرنا المخوة سافرنا عبر سفوح الجبال والتي ترتفع حافتها شديدة الانحدار إلى ٣٠٠٠ قدماً [٩١٤ متراً] فوق رؤوسنا. وتتبع هذه البلاد قبيلة غامد القوية والتي يسكن معظم أفرادها في الجبال إلى الشرق من هنا وتتوزع مزارعهم ومساكنهم على طول وادي بطاط والذي حولت ضفافه إلى مصطبات للزراعة والتي يتم سقيها عن طريق الري من الآبار وبالفيزان عند هطول الأمطار.

فيما وراء بطاط عبرنا رأس قنونه ودخلنا بلاد بلعريان وهي بلاد جرانيتية خصبة محمية بعدد كبير جداً من أبراج المراقبة وعندما وصلنا إلى مركز ثريان الصغير في اليوم التالي استمتعنا بضيافة الأمير والذي كان كريماً. وخلال ساعات الصباح الأولى الباردة سافرنا من هنا وسط حشد من القرويين على الحمير والجمال المحملة إلى سوق الثلوث [الثلاثاء] والذي يقع وسط تلال جرانيتية تناثرت على سطوحها جلاميد الصخور على ضفاف وادي يبا والذي يمتلىء بأشجار النخيل بالإضافة إلى محصولات ممتازة من الذرة والسمسم والتي تروى من جريان الماء في الوادي. وهنا يقع سوق عمارة وهي قبيلة جذابة تشبه عرب تهامة ويلبسون مثراً قصيراً مع خنجر محزوم في الأمام ويزينون شعورهم الطويلة بأعشاب ذات رائحة عطرية يشترونها من السوق. ويلبس عدد قليل من الرجال ومعظم النساء قبعات من القش. أما قبعات الرجال فهي لينة وعريضة الحواف وأما قبعات النساء فضيلة وصغيرة الحواف ولها ذروة مرتفعة. وبعد أن عبرنا الجدول كان هناك راع شاب وسيم قد ملأ حدائق النخيل بموسيقى أخاذة من مزماره وبعد ذلك دخلنا أرضاً جرداء ذات صخور نارية وتلال مسننة حيث توجد أشجار الوهط متفرقة وقد كستها الزهور رغم أنه لا أوراق لها.

واستمرت هذه الأرض المقفرة حتى وصلنا إلى وادي خايط وأراضى قبيلة حميضة المزروعة في بارق^(٤). وتشبه قبيلة حميضة العمارة وتعيش في بيوت مستوية السطوح ومبنية من الحجر بطريقة ممتازة. وتملك هذه القبائل المستوطنة عدداً قليلاً من الجمال وبعض البقر وقطعان لا بأس بها من الغنم والماعز^(٥). ولكنهم في الغالب فلاحين يزرعون الذرة أو الدخن في سهول صغيرة تروى بالفيضان أو يزرعونها في مجارى الأودية الغنية بالنظمى. وتقع فيما وراءهم بلاد آل جبلى والذين يعيشون على ضفاف وادي جبلى أحد روافد وادي حلى المهمة ولكننى عدلت عن زيارتهم رغبة في الوصول إلى وادي حلى والذي كنت تواقاً لتتبعه ليقودنى إلى الساحل لرؤية عرب تهامة الذين يهمنى أمرهم.

نحن الآن خارج البلاد المزروعة في بلاد البدو؛ وأعنى بهم قبائل الرعاة والقاطنين في البلاد المتقطعة فيما بين الجبال والسهل الساحلى وهم يشتغلون برعى قطعان الماعز

بصفة رئيسية ولكنهم يملكون أيضاً بعض الأغنام والبقر وعدد قليل جداً من الإبل .
كما أنهم يزرعون رقعاً صغيرة على طول ضفاف الوادى . ولا تستعمل هذه القبائل بيت
الشعر؛ الخيمة السوداء المستعملة فى أواسط شبه الجزيرة العربية بل إنها لا ترى غرب
جبال الحجاز ولكنهم يسكنون فى ملاجئ صغيرة من الحصير تعرف بالخدر، وأثاثهم
الوحيد عبارة عن عدد محدود من الأسرة ذات الأسلاك . وهذه القبائل هي :
الطحاحين، ربيعة، أم صيفارة ، بنى هلال، المنجحة، وإلى الجنوب من هذه
القبائل نجد القسم البدوى من قبائل بنى نهار، وشهران، وقحطان، وخولان،
والريث ويلبس رجال هذه القبائل مثزراً قصيراً ذا لون أخضر أو أزرق، أو
خمرى أحمر أما النساء فيلبسن قبة من القش ذات حواف صغيرة ولها ذروة عالية .

وصلنا وادى حلى فى الأرض المعروفة بالحلاوية حيث يوجد جدول صاف يجرى فى
بطن الوادى عبر أرض جرداء متقطعة، وعلى ضفتى الجدول نجد أعشاب الخلفا
وأجمات صغيرة من أشجار الوهط كالسلم والسمر . وعلى سفوح الجبال ذات الصخور
النارية تنمو أشجار الوهط، والراك، ومرخ، والمادها ذات الزهور الحمراء، وأذنة ذات
الزهور الجميلة والمحمولة على ساق بشع الشكل، ومرة، وحلبب، وأشجار الصبر.
ورأيت عدداً من الطيور منها: طيور البجع وأبو ملعة وأبو منجل اللامع والتي تنتشر
على طول بطن الوادى والذي تعج مياهه بأسمك صغيرة . كما لاحظت - أيضاً - وجود
طيور اللقلق أبو مطرقه، والبلشون الأبيض، ومالك الحزين، وبعض الخرشنة،
والدجاج الحبشى، والدراج، وأبو قرن، والشقراق الحبشى، وآكل النحل الأخضر،
والتمير المعدنى، والصرد، والمثرثر، والبلبل، والوقواق، وبعض النسور.

يجرى وادى حلى عبر الممر الصغير المدعو حصن الطرفين Husn al Tarafain إلى
السهل الساحلى الرملى حيث تقع أول قرية وهي قرية السبطة؛ سوق الإربعاء بالنسبة
للوادى^(١) ويقطنها العمور.

تتكون تهامة من سهل ساحلى رملى ضيق يتراوح عرضه ما بين ١٢ إلى ٢٠ ميلاً
[٣٢ - ١٩ كم] وتنقسم إلى ثلاثة أقسام : تهامة الشام وتمتد من البرك حتى الليث فى

الشمال، وتهامة عسير وتهامة اليمن. وتتداخل البلاد الصخرية المتقطعة والتي يبلغ إرتفاعها ما بين ٥٠٠ إلى ٤٥٠٠ قدماً [١٥٢ - ١٣٧٢ متراً] بين تهامة الشام وحواف الجبال وتعرف بالعرضى ولكنها جنوب أبها تسمى حباطة وتدعى كل السلسلة الجبلية بما فيها عسير والتي يصل إرتفاعها إلى ٩٠٠٠ قدماً [٢٧٤٣ متراً] بجبال الحجاز. ويشيع بين الأهالى استعمال إصطلاحات شام للشمال ويمن للجنوب وجبلى للشرق وبحرى للغرب ويبدو إستعمالها منتشراً جداً. ويتركز سكان تهامة والمدعوون بالتهاميين بالأودية التي تجرى نحو الساحل كنهايات لأودية الجبال وهم مقيمون وليسوا رحلاً ولا يتصرف الواحد منهم بأرضه خارج قبيلته ولا يبيعها خارج طاعة أولاده إذا كان عنده أولاد والذين يرثون من أبيهم بالتساوى أما البنات فلهن نصف ما يأخذ الولد^(١).

وأهم أودية الشمال هى أودية الليث والدوقه والأحسبة وقنونة، ويبا، وحلى. ويبدو حلى كأعظم هذه الأودية بحوض تصريف يمتد من شرى فى الشمال وحتى طيه Taiya فى الجنوب ويعلوه فى العظمة وادى بيش والذى مع عتود وضمد الصغيرين يمثلون أودية تهامة وعسير الرئيسية.

يسمى التهاميون أنفسهم بأسماء الوديان التى يقطنون فيها فمثلا سكان حلى حلوان وسكان يبا يبايه. ويسكن فى الوادى الواحد عدة قبائل ففى وادى حلى تسكن أربع قبائل وهى : علاوينه Alawina وسحاب Sahab وكنانة والعمور؛ وفى وادى يبا تسكن فيه قبائل بنى يالا والنواشره وبللعر والشاردى؛ وفى وادى الأحسبة يسكن فخذ العبادلة من الأشراف^(٢) ولا تدعى هذه القبائل بأنها ترجع إلى أصل واحد ولكنهم يصرحون بأنهم يتحدون تحت علم واحد أثناء الحروب.

ويوجد عدد كبير من الرقيق وخاصة فى تهامة وعسير ولكن أغلبهم الآن أحرار ويملكون أراض. ويهجر الوادى سكانه عندما لا يفيض إلى منطقة أخرى فى تهامة حيث يرحب بهم سكانها ويقوم القادمون بمساعدة سكان المنطقة على الحصاد وبعد انتهاء موسم الحصاد يرجعون إلى واديههم محملين بالحبوب. وإذا حصل العكس بأن سال واديههم فى سنين أخرى فإنهم يستقبلون مضيفيهم السابقين وهكذا. . ويجرى

العمل بهذا النظام من جيزان إلى الليث ولقد واجهت عائلات قادمة من مشارف صيبا في القنفذة. ويتكرر تعرض الأودية الصغيرة لسنوات الجفاف بعكس الأودية الكبيرة كحلى وبيش والتي تعتمد على الفيضان المؤكد كل سنة. وفي السنة الماضية تراجعت ضفة الرى الرئيسية في وادى حلى ونتيجة لذلك فلقد هجر السكان جزء الوادى الذى يقع فوق بيضان وانتقلوا إلى وادى يبا. وقد تحصل الفيضانات في أى شهر ولكن المعتاد أن تسقط في الشتاء والخريف ويقوم السكان بحجز المياه وتوزيعها على مساحة كبيرة بواسطة ضفاف تدعى زابر Zabir والتي تستدعى عناية مستديمة. وهذه الفيضانات لا يمكن التحكم فيها وقد تدمر المحصولات الناشئة. والمحصولان الرئيسيان هما الذرة، والتي تزرع في ترسبات الطمي وتنتج ما بين ثلاث إلى خمس حصدات في البذرة الواحدة^(١٣)، والدخن والذي يزرع كمحصول يعتمد على المطر في الخبت أو الأرض الرملية فيما بين الأودية. وتحصد الذرة أول مرة بعد خمسة أشهر من بذرها ثم بعد ذلك كل شهرين حصدة، أما الدخن فيحصد مرة واحدة بعد ثلاثة أشهر من زراعته. وتعتبر سيقان الذرة وليس الدخن مفيدة جداً كعلف حتى وإن كانت جافة. وعندما ينجح المحصول في شهرى يوليو وأغسطس يستعمل لهذه الغاية فقط حيث أن الرياح الحارة المحرقة في هذا الفصل تخفف حبوب الذرة. ويزرع السمسم على حافة السهل الفيضى حيث يزرع - أيضاً - كمية صغيرة من القطن والفاصوليا.

وليس لدى التهاميين دورة زراعية ويبدرون غالباً عندما تفيض الأودية وتوجد بعض البساتين الصغيرة حول بعض الآبار حيث يزرع الطماطم وأوبرجين Auber-gins وإصبع السيدات والقرع والحبيب والشمام السكرى والأعشاب ذات الرائحة الحلوة^(١٤). ولا يزرع هنا البصل والثوم والفلفل الأحمر ولكنها مع الليمون والعنب والمشمش والخوخ والرمان والموز والبطاطس وأعشاب البرك والعشر تحضر من أسواق الحجاز. ويوجد عدد قليل من أشجار النخيل والتي تنمو غالباً في وادى يبا الأعلى وعلى طول الساحل فيما بين عمق والفحمة ولكن معظم التمر المستهلك هنا يصل عن طريق البحر من واحة بيشة. وينمو نخيل الدوم هنا في أودية تهامة عسير فقط وتصدر

سعفه وأيضاً تباع في الأسواق المحلية لعمل الحصير والحقائب والسلال والحبال .

ويملك التهاميون عدداً محدوداً من الإبل ومعظمها تملكه القبائل القاطنة شمال القنفذة ويستعملون البقر في الحرث وشق قنوات الري . ولقد أخبرت بأن الرجل الغنى قد يملك مايزيد على ثلاثين أو أربعين بقرة؛ لذلك فمن المؤكد أنهم يملكون أكثر مما شاهدت . وتوجد - أيضاً - قطعان لا بأس بها من الماعز وبعض الأغنام والتي عموماً تعطى للبدو للمحافظة عديها كما أن رؤية الدجاج حول القرى يعتبر منظرأ مألوفاً . ويفضل التهاميون الحمير كمركوب مفضل ويسافرون عليها مسافات طويلة وفي وقت قصير بصورة مدهشة ويستعملونها - أيضاً - لجلب المياه من الآبار في أواني خزفية كبيرة تعلق على الجانبين . ويندر وجود حطب الوقود على الرغم من وجود بعض الأراضي المغطاة بأجمات الراك والأثل في الأودية كما توجد أشجار السدر في الحقول والتي تحفظ من أجل ثمرها .

ويعيش هؤلاء العرب في أكواخ عشبية مستديرة ومبنية بناء حسناً . ويتألف كل كوخ من غرفة واحدة ويبنى كقطعة واحدة على هيكل من الأغصان وبدون عمود مركزي في معظم الأحيان ويتم طليه من الداخل بالطين والوحل ويسقف بقش بحيث يثبت بمكانه بحبل دقيق . وتكون هذه الأكواخ متقاربة جداً في القرى ، ويحاط بعضها بحواجز عالية من أغصان مقطوعة وبعضها الآخر تكون مطوقة داخل زريبة من سيقان الذرة المكومة . ومن المألوف أن ينزل الواحد عن جملة ويسير على قدميه عندما يمر من خلال هذه القرى . وتصنع قدور الطبخ وقدور الماء والأكواب من الفخار المحلى ولونها عادة أحمر . أما طيباس الشرب فهي مصنوعة من الخشب ، وسفر الطعام والسلال تصنع من نخيل الدوم ، ومخمضة الزبدة تصنع من قوقعة القرع . وتعلق كل هذه الأشياء على جدران البيت مربوطة بحبال جلدية . ويستعمل سرير الحبال للنوم والجلوس لأن الأرض تغزى باستمرار بالقرادات (القردان) على الرغم من أن البق والبراغيث لا توجد في هذه القرى .

ويشرب الأهالى عامة قهوة الزنجبيل^(١٥) ودائماً يملأون الفناجيل ويقدم للضيف

فنجائين دفعة واحدة ويصنع الخبز أو العصيد من طحين الذرة فإن عدم فمن طحين الدخن^(١) وهي الطعام الرئيسى ويؤكل مع زبدة مصفاة. ويشيع - أيضاً - أكل السمك الجاف والتمر ولكن أكل اللحم يعتبر ترفاً ويندر اللبن. والتهاميون في تقدير العرب ليسوا أناساً كرماء.

يلبس الرجال بصفة مستديمة مثزراً مع خنجر أو سكين طويلة مربوطة في الأمام وكذلك من الشائع أن يحملوا سيفاً ذو غمد فضى. ويتم كسوة الأطفال منذ صغرهم ويتمنطق كل الذكور بما فيهم الأطفال الصغار حزاماً جلدياً حول الوسط. ولقد حدث مرة أن شاباً صغيراً جلس يأكل معنا وقد نسي أن يتمنطق بحزامه بعد إغتساله، ولما انتبه لذلك قام من فوره ورفض إتمام المائدة معنا. ويلبسون - أيضاً - جاكيت صغير ذو ألوان زاهية وضيق الأكمام خاصة في أيام الأعياد. وللشباب والأطفال شعر طويل يقومون بفرقه من الوسط ودهنه على طول الفرقة بعجينة من لب الحب المسحوق. ويتم تثبيت الشعر الطويل بمكانه بلبس عصابة ضيقة من الجلد قد تزخرف أحياناً بالفضة. وفي أحيان أخرى يلبسون عصابة من الأعشاب ذات الرائحة الحلوة وإلا فيضعون حزمة من الأعشاب تلصق بعصابة الرأس الجلدية.

ويتمتع التهاميون بأجسام نحيلة في لون القهوة ولهم شعر أسود متموج، ويتمتع الأطفال والشبان بجمال صارخ مع ملامح دقيقة وأنوثية. ويبدون مرحين سعداء وخالين من الهموم كما يتميزون بضحكهم وودهم وحبهم للمزاح وسلوكهم لا تكلف فيه لذلك فسلوكهم في تقدير العرب فظ أخرج حيث أنهم لا يقومون لتحية الغرب كما أنهم يتمددون (يضطجعون) في الأمكنة العامة بطريقة طبيعية سهلة بلا مبالاة. وحقيقة لاحظت أنهم لا يراعون مشاعر الآخرين ولكنهم ليسوا فظي الطباع.

ويعانى التهاميون من مرض الملاريا ولقد انزعجت من كثرة مرض السفلس (الزهري) والذي معظمه خلقى والذي شاهدت في وادي حلى. كما لاحظت - أيضاً - وجود حالات من مرض التراخوما وعدداً قليلاً من القرحة المدارية، وحالة مؤكدة لإلتهاب الزائدة الدودية. وتنتشر هنا الدودة الغينية وفيما بعد رأيت عدة حالات منها حول صبيا.

عندما وصلت إلى بيضان ، قرية للمشيقي ، وجدت سكانها مع جيرانهم يحتفلون بالختان والذي له أهمية عظيمة جداً في جميع هذه القبائل وهي الفرصة المتاحة للرقص والذي يستمر من أربع عشرة ليلة إلى شهر . وتجري هذه العملية للغلمان ما بين ستة عشر وخمسة وعشرين سنة . وفي هذا الإحتفال كان هناك أربعة غلمان فقط يراد ختانهم ولكن في بعض المرات يوجد ثمانية أو عشرة . ويلبس الأولاد ثياباً مميزة وسراويل تحتية مطرزة بلون أحمر حول الكاحل وهي تلبس تحت تنورة بيضاء كاملة ومحكمة على الوسط بحبل^(١٧) ، إضافة إلى جاكيت أحمر لامع . وفي الظهر والليل من كل يوم يجتمع الجمهور والأولاد المراد ختانهم يرقصون على إيقاعات الموسيقى التي يؤديها موسيقيون من الزنوج يستعملون آلات موسيقية تدعى الزلفة وهي طبل كبير يضرب بالأيدي وطبلين صغيرين تدعى زير وهي تضرب بالعصى ، ومزمار مزدوج يدعى صفريقه وتنحكم الزلفة في حركات الرقصة المعقدة وأسلوبها . وأستطيع أن أرى ولدين صغيرين قد انضموا للرقص لكي يتعلموا الخطوات وأطفال آخرين يتمرنون بعيداً عن الجمهور ، وخلف الجمهور يقع الجيش أو المحاربون يتمايلون في صف وسيوفهم مسلولة ومرفوعة عالياً وعلى رؤوسهم تيجان من الزهور مع كشف نصف أجسادهم . ويتم هذا الرقص في ضوء القمر على إيقاعات الطبول الشديدة .

وقد قام الأولاد المراد ختانهم وقبل ميعاد العملية بيومين بالطواف على القرى المجاورة راكبين جملين ومعهم أصدقائهم وأمامهم الفرقة الموسيقية . وفي كل قرية من القرى التي مروا بها تناولوا الطعام ورقصوا .

في يوم العملية إجتمع خلق كثير جداً لمشاهدة الختان وفي آخر النهار وبعد أن رقص الأولاد انسحبوا إلى أكواخهم . وبعد ذلك تم نقلهم على أكتاف رقيق كل واحد بمفرده وقد لبس كل واحد منهم المنزر . وبعد إنزال الولد المراد ختانه تقدم أمام الحشد ضاماً يديه ثم قام رقيقين بإجراء العملية وبعدها تم حمله مرة أخرى على ظهر الرقيق ودار فيه بين الناس المحتشدين وهو يرقص بأكتافه وسواعده على أصوات الموسيقى . وقد احتقر أحدهم أن يركب وقام بتقديم عرض راقص مذهش ولم يقدم أى واحد منهم أية علامة على الألم رغم أن العملية ، ولو أنها عدلت بأمر الملك عن سلخ الجلد

في الماضي القريب، لا تزال تجرى بطريقة عجيبة ومؤلة^(١٨).

وبعد أن غادرنا وادي حلى في كباد، والتي تعتبر سوق الأحد الكبير والمستعمل بكثرة بواسطة البدو المجاورين، سرنا عبر إنحناء الوادي خلال منطقة بنى هلال؛ ورثة السفاح صاحب الإسم الاسطوري وهم يعيشون اليوم في الأرض البركانية بين محایل وبرك والقحمة. ووفقاً للأعراف المحلية فإن لأبي زيد الحق في استغلال وادي حلى كما أن قبر ولده عزيز اشتهر بأنه هناك. ومن خصوصيات بنى هلال وحتى وقت قريب اللصوصية وقطع الطريق والقتل وحتى اليوم فإن المسافرين عبر هذا الدرب ينظرون إليهم باحتراس. وعددهم محدود وهم يعيشون حياة بدوية في هذه المنطقة البركانية.

وفي الماضي حصل ثوران بركاني من جبل شارف Sharif والذي يقع بالقرب منه نواة بركانية محفوظة حفظاً جيداً. ويمتد حقل الحمم البركانية (اللافا)، والذي من خلال نباته يبدو ذا عمر كبير جداً، من هنا وحتى البحر ما بين عمق والركوبه جنوب القحمة ويشمل كذلك حنبب الشيخ قرب برك^(١٩).

عبرنا وادي حلى مرة أخرى قرب محایل وهي سوق سبت مهم وتتبع إدارياً أبها وهي تقع على إرتفاع ١٦٩٠ قدماً [٥١٥ متراً] فوق سطح البحر. وبيوتها، كما هي الحال في كل قرى العرضى Ardhi، تتكون من بيوت حجرية ذات دور واحد ويجرى زراعة الأعشاب الحلوة في قدور فوق السطوح المستوية. ولقد قمنا بتغيير جمالنا هنا لأن الجمال لا تستأجر في هذه المنطقة إذا كان المستأجر سيأخذها بعيداً عن القرى. وبعد ذلك تتبعنا وادي طيه إلى عقبة شعار، وهي الممر الذي يأخذك عبر الحافة الجبلية إلى جبال الحجاز.

وادي طيه واد غنى وهو مزروع زراعة كثيفة بواسطة فروع بنى ثوار المستوطنين ولقد قام السيل بحفر ما يربو على ٤٠ قدماً [١٢ متراً] عبر ترسبات الغرين والطيني ليصل إلى طبقة الحصباء السفلية، ولكن هناك سلسلة من المجارى والتي تروى جميع المستويات. ويوجد في الوادي محصولات طيبة من الذرة أرويت من السيل الأخير

حيث أن العواصف الممطرة على الجبال خلال العشرة أيام الأخيرة قد أحضرت كميات كبيرة من الغرين والطينى عبر الوادى . وقمة الوادى العليا لا يزيد عرضها عن ٢٠٠ ياردة [١٨٣ متراً] وهى منطقة حجرية ومحصورة بجبال عالية شديدة التحدر وذات صخور جرداء . إنه منظر مؤثر ومثير للرعب ومهجور إلى أبعد حد وتتخذ الصخور الواقعة حول عقبة شعار لوناً فضياً لماعاً ولافتاً للنظر .

ويوجد على رأس الممر^(٢٢) ، والذي يعتبر سهل نسبياً ، مجموعة من القلاع التركية كما يوجد طريق تركى جيد يربط بين هذا المكان وأبها عبر بلاد بنى مالك . وعسير تتكون من القبائل التالية : بنو مغيث وبنو مالك^(٢٣) . وعلكم وربيعه ورفيده والقبائل الصغيرة مثل عصام ورجال ألمع أسفل السودة . وعلى طول الطريق وفى أودية صغيرة بين تلال صخرية تقع قرى وحقول قمح وشعير وبساتين فواكه . وتبدو البيوت هنا متميزة ومبنية من الطين وبها عدة صفوف من الأحجار الناتئة مثبتة فى النصف العلوى من الجدران وذلك لمنع التعرية . وتحرس الحقول والمناطق المرتفعة بإقامة عدد من أبراج المراقبة ذات الشكل المربع أو الدائرى وهى تبنى من قطع صخرية كبيرة مرصوفة ومزينة بأربعة أطواق من الكوارتز الأبيض ، وبعضها الآخر تتخذ شكلاً دائرياً مستديماً وهى مبنية من الطين مع أو بدون صخور ناتئة^(٢٤) .

أبها مدينة صغيرة ترتفع عن سطح البحر بحوالى ٧٠٠٠ قدماً [٢١٣٤ متراً] ولقد بنيت حول القلعة وبها عدة محلات تجارية وهى مركز إدارى مهم جداً ويحكمها اليوم تركى السديرى ؛ عميد الأسرة المشهورة التى تدير - أيضاً - جيزان ، والقنفذة ، وجدة ، والجوف ، والظهران على الخليج العربى . والسوق فى يوم الثلاثاء وهو فريد بألوانه ، وتلبس النساء فى هذا السوق فساتين زاهية الألوان وشيلان ساطعة فوق رؤوسهن . ويجتمع هنا عدد من العرب . تجد هنا رجال القبائل من تهامة ، والنجديون بعباءاتهم المصنوعة من وبر الإبل ، والبدو القادمون من الصحراء العظمى إلى الشرق ، وعرب الجبال والذين يلبسون ثياباً خارجية فضفاضة ومطرزة وتيجان من الأعشاب على رؤوسهم ، وزوار من اليمن ، وكذلك رقيق من حرس الأمير . وتباع فى هذا السوق وفى زوايا منفصلة الحبوب ، والزبد واللبن ، والخطب ، والملح ، والحناء ،

والجص (الكلس الأبيض)، والقهوة، والعسل والتوابل، والقدور الخزفية، وقطع حديدية ومصنعة، والحصير، والسلال والحبال، والأقمشة، وجلود الماعز، والفواكه، والأعشاب، والأعلاف، وقليل من الماشية. ويبذر القمح (البر) والشعير في هذه الجبال في الشتاء أما الذرة فتبذر في الصيف.

ولقد وصلت إلى أبها في الثاني من مايو حيث تبدو معظم الحقول جرداء، وقد بذرت بعض الذرة سلفاً على الرغم من أن القمح والشعير لم يحصد بعد كلية. وتبدو المنحدرات المزروعة في كل الأماكن ذات مصاطب وقليل جداً من الحقول تروى من الآبار. والفواكه التي تزرع في الحجاز هي المشمش، والخوخ، والبرقوق، والكمثرى، والتفاح الأخضر الصغير، والعنب، والرمان، والتين، والتين الشوكي، واللوز.

سافرنا من هنا إلى ظهران الجنوب والتي وصلناها بعد أربعة أيام ونصف مررنا خلالها عبر بلاد شهران، وقحطان^(٣) والتي تقع فيما وراء تمنيه وهما قبيلتان كبيرتان وقويتان. لقد كان مبهجاً لتسافر عبر هذه الأراضي المرتفعة ذات الجو المنعش المعتدل والقرى المتعاقبة. ويوجد تنوع في بناء وأشكال البيوت والتي تم بناؤها بشكل عظيم ومن عدة طوابق لغرض الدفاع. وكلها تتمتع بجمال حسن ومتجانس. وتتميز غرف الضيوف بأنها باردة وواسعة وبزخرفة أجزاء جدرانها السفلى بنطاقات خضراء وحمراء وسوداء. ولقد أمضينا أمسيات طويلة وسعيدة هنا حول موقد النار وبين رجال القبائل الذين لم تتسرب إليهم تأثيرات الغرب المتناقضة بعد.

وصلنا إلى ظهران الجنوب في اليوم التالي لعبورنا ممر كوارى Qawari والذي يرتفع عن سطح البحر ٩١٠٠ قدماً [٢٧٧٤ متراً] وكانت منحدراته تضيء بزهور القابور (بيسر) الذهبية. وفي نصف اليوم الأخير سافرنا عبر صخور بازلتية مقفرة متكونة فوق صخور جرانيتية. وتبدو ظهران الجنوب (٧٥٠٠ قدماً = ٢٢٨٦ متراً) رائعة ببيوتها الضيقة المحتشدة ذات الطوابق المتعددة والتي بنيت على طول وادي عرين Arin حيث يزرع قليل من البن. وتنتشر أمراض العيون هنا بشكل مذهل.

من هنا هبطنا إلى وادى قاع عبر ممر مفتاح الخشبة^(٢٤) وهو ممر خطر قليل لنا يتعذر على الجمال سلوكه . وتبدو الجبال وقد كسيت ببساط من الزهور البرية وأشجار العرعر المتفرقة والتي تنمو على قمم الحروف^(٢٥) . ولقد قمنا بتتبع الوادى عبر أجمات مدارية حيث يكثُر الدجاج الحبشى فى هذه المنطقة ، ووصلنا إلى جلة الموت بعد أن قمنا بالدوران حول حافة هضبة مشيط . يقع هذا الموقع المنحوس حيث يلتقى وادى الدفاع مع وادى ضباع فى حوض تحده جبال مرتفعة ويرتفع عن سطح البحر ٣٥٠٠ قدماً [١٠٦٧ متراً] . وقد توفي خمسة وأربعين حارساً حكومياً من تأثير الحمى فى خلال سنتين فى المركز الإدارى الصغير . وفى هذه البلاد البرية والتي يصعب جداً الوصول إليها والمملوءة بالحمى وبين قبائل همجية لم يتحكم فيها إلا أخيراً يعمل أمير وعدد صغير من الحراس على حفظ القانون والنظام مستغلين هبة ومقام اسم ابن سعود .

ويقطن بدو قحطان إلى الشرق من وادى الدفاع وإلى الغرب منه يوجد الريث والعزيين وعلى طول حدود اليمن تقع قبائل خولان من آل تليد وبنى مالك وبلغازى^(٢٦) . هذه القبائل والتي وجدت أفرادها كرماء تختلف فى المظهر عن بدو العرضى بأن أفرادها يتمتعون بلون فاتح وأنف معقوف وأذقان ملحوظة ويشبهون البدو فى داخل الجزيرة العربية ويلبسون مئزراً قصيراً جداً لا يكاد يسترهم عندما يجلسون القرفصاء ولهم شعور طويلة ولكن الشباب غير المختونين يتميزون بحلق مساحة عريضة من أعلى رؤوسهم ويؤخر ختانهم حتى يبلغون عشرين أو ثلاثين عاماً والتي خلالها ربما يكونون قد تزوجوا وأنجبوا أطفالاً . وهذه القبائل مسلحة تسليحاً جيداً ومعظم بنادقهم إيطالية مصنوعة عام ١٨٨٩م . وهم يعيشون فى ملاجئ (أكشاك) حجرية ، دائرية منخفضة وبسيطة ومسقوفة تقريباً بالأعشاب والأغصان وفى وقت الأمطار ينشرون جلوداً مذبوغة فوق السقوف منعاً لتسرب المطر . ويملكون قطعاناً كبيرة من الأغنام والماعز وبعض الأبقار كما يملكون إبلاً أكثر من القبائل الواقعة فى الشمال . وتزرع بعض القهوة وقليل من القمح والذرة والتبغ فى الجبال ولكن على العموم هؤلاء الناس لا يزرعون . وهم يقايضون السمن بالحب والقهوة فى أسواق تهامة وحدود اليمن ويحضرونها على جمال عبر جبال معدومة الطرق وشديدة الانحدار ،

وبدلاً من أن يستعملوا الشداد لحمل الحقائق المصنوعة من جلود الماعز يقومون بربطها على ظهر الجمل فوق جلد مطوى.

جبل فيفا والذي يرتفع ٦٠٠٠ قدماً [١٨٢٩ متراً] فوق سطح البحر يقع على حدود اليمن وقد حولت منحدراته إلى مدرجات كثيفة لزراعة القهوة، والقات، والموز، والبسو Pawpaws، والعنب، والقرع، والخوخ، والتين الشوكي، والذرة، والقمح، والشعير. وبجانب جبل فيفا يقع جبل بنى مالك والذي يرتفع ٧٠٠٠ قدماً [٢١٣٤ متراً] فوق سطح البحر وبه - أيضاً - مدرجات يزرع بها القهوة، والموز، والذرة، والقمح، والشعير. ويبيع القات المحضر من جبل فيفا في تهامة في جيزان وصببا وأبوعريش ويبيع بأسعار مرتفعة جداً ولكنه لا يزرع ولا يؤكل في أى مكان آخر من تهامة الحجاز أو عسير. وكميات المياه في كلا الجبلين ليست كافية وفي أيام السوق تباع القربة المصنوعة من جلد الماعز والمملوءة بالماء بأربعة ريالات.

من جلة الموت تتبعنا وادى الدفاع والذي سريعاً ما يغير اسمه إلى بيش. ولقد تعطل سيرنا بشكل مزعج نظراً للفيضانات المستمرة والتي حصلت نتيجة للعواصف الليلية والتي هبت على الجبال حيث أن طريقنا الوحيد يقع في بطن الوادى. وفي كل يوم كنا نرى قردة السعدان، غالباً في جماعات كبيرة والأرانب في كل مكان. كما تنتشر هنا بشكل كبير الذئاب والضباع وأنواع من النمر الصغيرة الفاتحة اللون، والوعول Ibx والتي تألف جروف الجبال. أما الغزلان فتوجد في السهل الساحلى فقط. انطلقنا حول جوانب جبل الريث الشرقية والشمالية شديدة الانحدار حيث الوادى والذي على جانبيه تنتشر أشجار الدوم وهو يلتوى بدون نهاية بين أقدام الجبال الجرداء المسفوعة بحرارة الشمس. وكانت الحرارة مرتفعة جداً والسيال المملوء بالطمى والذي يصل إلى ركبنا لا يصلح للشرب. وقد غيرنا اتجاهنا نحو الجنوب بعد أن وصلنا السهل بعد حقو Hagu وتسلقنا إلى هروب Harub وكان الجو معتدلاً على سفوح الجبال الواقعة تحت قمم أرض العزيين ومنجد المكللة بالسحب حيث تزرع القهوة والقمح والشعير على سفوح الجبال أما الموز والبسو فتزرع في الوادى.

في طريقنا إلى صيبا مررنا بعاصمة الإدريسي المهجورة «صيبا الجديدة» والتي تبدو قصورها المزخرفة وقد تداعت إلى حطام. ويوجد اليوم بعض الإشاعات عن الرجوع إلى هنا حيث أن صيبا بالي تعاني جداً من السيول. وتبدو جميع القرى أكبر من قرى تهامة الشام وهي تغطي المناطق المجاورة والزراعة هنا واسعة. وتزرع أشجار النيلة هنا بشكل كبير ولا يزرع أبداً في المناطق الواقعة إلى الشمال من هذا المكان ويصنع الصبغ في أوعية ضخمة في منطقة آبار القرية.

جيزان، والتي تدار منها تهامة وعسير، تمثل الميناء المحلى في حين أن القنفذة، والتي تعرف عموماً بالبندر، تخدم شمال تهامة، وكلا المينائين يتحملان فقط الدهو والذي يجري إدخاله - أيضاً - إلى البرك وقحمه. ولقد حضرنا سوق السبت في أم الخشب في وادي بيش^(٣٧) وهو واحد من أكبر أسواق تهامة. وتصنع الخوذ هنا من سعف نخيل الدوم وهي خصوصية لهذا الجزء ويلبسها الرجال على الرغم من أن الرجال الكبار في السن يفضلون قبعات مصنوعة من القش وعريضة الحواف.

الآن رجعت الى أبها بواسطة وادي عتود مستعملاً ممر ضلاع السهل وكان الحماهم الأخضر كثيراً جداً في هذا الوادي وأيضاً كانت هناك مجموعة من الطيور منها: الحباك، والرفراف، والكروان، والسبد أو الضوع، والأبلق الرمادي ذو الذيل الداكن أما في الجبال فينتشر كاسر العظام والذي يهبط بين أقدام الجبال إلى انخفاض قد يصل ٢٠٠٠ قدماً [٦١٠ متراً]. وتنمو زهور برية من أنواع متعددة في الصخور البركانية والتي تمثل الوجه الغربي للجبال وكذلك قمى القمة البركانية.

وحيث أن الطريق الجبلى إلى الطائف متعذر على الجمال سلوكه فقد اشترت ثلاثة حمير من أبها وذلك لأن استئجارها كان سيكلفنا تأخيراً مستمراً. ويمر طريقنا بالناص وضافر على طول قمم الجبال وكان هناك عدة ممرات كبيرة وحواف تلالية متعاقبة بصفة لا تنتهى وشديدة الانحدار ولذلك كان الركوب في هذه الحال يعتبر أمراً مستحيلاً وبدلاً من ذلك قطعنا أكثر من ثلاثة أرباع الطريق إلى الطائف مشياً على الأقدام والذي كان صعباً جداً وأتعب قدمائى حيث أن نعالي قد تساقطت قطعاً صغيرة ولم يكن باستطاعتى استبدالها.

تحتوى الجبال فيما وراء عقبة شعار على صخور جرداء ولكن قرب بيحان توجد غابات كثيفة من العرعر. بعد أن سافرت تحت الحافة الجبلية ثم بعد ذلك على قمم الجبال إلى ظهران الجنوب ظننت أن شجر العرعر حول السودة والذي رأيت في العام الماضى كان حالة شاذة في جبال جرداء خالية من الأشجار ما عدا بعض أشجار الطلح المتفرقة ولكننى وجدت الآن أنه إلى الشمال من أبها وعلى طول قمم جبال الحجاز توجد مناطق أحراج كثيفة وفي مناطق أخرى تكون هذه الأحراج كثيفة جداً. ومن أشجار هذه الأحراج العرعر، والزيتون البرى والطرفاء، والكاريسا Carissa، والطلح^(٢٨).

ويتراوح ارتفاع هذه الجبال في هذه المنطقة ما بين ٦٥٠٠ و ٩٠٠٠ قدماً [١٩٨١ - ٢٧٤٣ متراً] ونادراً ما يمتد إلى الخلف أكثر من ميل واحد.

ويحجب تهامة ضباب رقيق مستديم وفي بعض الأحيان يكون كثيفاً جداً لدرجة أن الجروف شديدة الانحدار وعلى ارتفاع ٣٠٠٠ قدماً [٩١٤ متراً] تتلاشى في فراغ ضبابي، وخلال أشهر الصيف يؤدي هذا التأثير البحرى إلى الحد من الرؤية في السهل الساحلى إلى أميال قليلة. وفي الصباح تستمر الرياح غربية قوية ولكنها تضمحل عند الغروب وتعاود الكرة من الغد في الساعة الحادية عشرة ونتيجة لذلك تتناقص الرؤية طوال النهار.

تنحصر النباتات الطبيعية في المنحدرات الشرقية حيث أن الحافة الجبلية شديدة الانحدار وصخرية وخالية من التربة الصالحة لنمو أية نباتات ما عدا بعض النمو الهزيل. أشجار الخلنج ليست شائعة ولكن الورود البرية والعليق والياسمين وصريمة الجدى وزهور الربيع والقرنفلى والأنشوصا والسرخس مع الحميض والقراص والنفل تنمو على طول الممرات مع وفرة الصيف الانجليزى بينما الخزامى والسذاب تعطر الهواء الدافئ برائحة حلوة. ويوجد عدد قليل من أشجار الصفصاف على طول الأودية قرب الظفير.

وكلما كان ممكناً تحول منحدرات الجبال إلى مصاطب لزراعة محاصيل القمح

والشعير والدخن والذرة وتعتمد هذه المحصولات في ربيها على المطر ما عدا قليل من الحقول المزروعة بالبرسيم الحجازي فتروى من الآبار وذلك برفع الماء في دلاء جلدية بواسطة الحيوانات التي تستعمل طريقاً منحدرًا، وهي الطريقة الوحيدة المتبعة لرفع المياه ولسقى النباتات في الحجاز وتهامة. وتشيع زراعة أشجار الكرم على تعريشة فوق هذه الآبار، وتزرع البطاطس، والطماطم والكوسا حول النماص. والمطر قد يسقط في أى شهر ولكنه عادة ما ينزل ما بين نوفمبر ويناير أو بين أغسطس وسبتمبر، وكانت هناك آثار مطر عندما مررت بجنوب النماص ولكن إلى الشمال كان هناك بعض رشات المطر القليلة جداً فقط منذ فبراير.

في شمال عسير توجد قبائل بللسمر، وبللحمر، وبنى شهر حول النماص، وبنى عمرو. وهذه القبائل تعرف مجتمعة برجال الحجر وهم يعيشون في حصون مبنية من عدة أدوار بكتل من الأحجار الضخمة المصقوفة، والتي تلمع في بعض الأحيان بطبقة من الجص الأبيض وتزخرف، كما هو شائع في كل الحجاز. بنهاذج من الكوارتز حول النوافذ الصغيرة. وفيما وراء النماص تعيش القبائل عادة في بيوت ضخمة ذات طابق واحد وقاعات غالباً ذات حجم كبير جداً وسقوفها تعتمد على صفوف من الأعمدة الثقيلة والمأخوذة من شجر العرعر والطلح، ومنزخرفة بنهاذج محفورة ويقع سوداء. وفي بعض الأحيان يعيشون في غرف صغيرة فوق الزرائب والتي معظمها تكون مخفاة خلف حائط أبيض مرتفع. وفي الجو الدافئ ينام الناس فوق السطوح لأن البق والبراغيث شائعة في هذه البيوت الجبلية.

وصلنا إلى النماص في يوم احتفال بالختان وتكون الاحتفالات داخل هذه القبائل محددة باليوم السابق للعملية والتي تجرى للأولاد بين عشر واثني عشرة سنة. ولقد جرى إكرام جميع القادمين للاحتفال على عكس الاحتفال في وادي حلى والذي لا يتم فيه توزيع الضيافة. ولقد كان هناك حوالي مائة وخمسين من رجال القبائل مسلحين ببنادق المسكيت Tower muskets والتي لا يجرى تفجيرها بحجر القداحة ولكن عبر لفة من حبل دقيق يحترق ببطء. قام رجال القبائل بالإنقسام إلى أربع مجموعات ثم تدافقوا في تعاقب سريع ومستمر على أرض فضاء ودبدبة وعليها إندفعوا بسرعة مع

رمى بنادقهم عالياً في الهواء . وبعد ذلك أفرغوا بنادقهم المحشوة بخرق وأسال بالية عبر طلقات متتابعة ثم احتشدوا مرة أخرى لحشو بنادقهم بينما دخل الفريق الثاني الميدان مزخرفين بقوارير ملح البارود الفضي وزخارف أخرى ولايسين ملابس كاملة وكانوا يمثلون مشهداً رائعاً يرى من خلال سحب الدخان المتصاعدة . ولقد حضر جمهور كبير جداً غطى الجدران والسطوح المجاورة ولا يكاد يسمع نتيجة للضجة التي لا تنتهى . وفي اليوم التالى جرى ختان الأولاد الثلاثة .

أثناء سفرنا عبر قبائل بلقرن وبنى خثعم دخلنا بلاد غامد والتي مركزها الظفير وهى قرية صغيرة بنيت حول قلعة وتعتبر سوق الثلاثاء والذي منه يمكن الإستمتاع بمنظر رائع لجبل شدا الشامى فى نهاية الوادى . لقد وجدت أن قبيلتى غامد وزهران^(٣٩) أكرم قبائل الحجاز بدون منازع . وغالباً جداً يتم إفعال الباب فى [بلاد بعض القبائل] متى ما شعروا بدنو الغرباء ولم تكن هذه العادة لتمييز دينى بسبب أننى بلباسى العربى لم أكن متميزاً عن بعد ولأول وهلة يظن أننى مسلم ، رغم غرابة هيتى ، حيث سيكون غريباً جداً فى هذه البلاد أن تقابل رجلاً من ديانة أخرى . ويدخل الضيوف البيت إذا كان المالك خارجه ويشعرون بأنهم فى بيوتهم وبين القبائل الأكرم لا يغلق الباب أبداً (٣٠) .

وصلنا إلى الطائف فى الرابع والعشرين من يونيو بعد أن قطعنا المسافة من أبها إلى الطائف وهى ٣٠٠ ميلاً [٤٨٣ كم] بستة عشر يوماً متواصلة السفر . لقد وصلنا إلى الناص بعد أربعة أيام من سفرنا واحتجنا ستة أيام أخرى لنصل إلى ضافر وكذلك ستة أيام أخرى لنصل إلى الطائف . من ضافر كان هناك طريقاً للجمال إلى الشرق من هنا يوصل إلى الطائف فى أربعة أيام ونصف ولكنه يستلزم حمل مياه تكفى على الأقل ليومين والتي حملها ليس ضرورياً فى الجبال . لقد سافرنا بجتهاد شديد وكان متوسط سفرنا يومياً هو عشر ساعات وعلى الرغم من أن غذاءنا الرتيب كان خبز بر يغمس فى زبدة مع صحن من التمر أحياناً فإننى حافظت على لياقتى البدنية .

طوال هذه الأشهر الثلاثة ساعدنى جميع الأمراء الذين قابلتهم بكل ما يستطيعون

وأكرموني بما تشتهر به شبه الجزيرة العربية من كرم الضيافة . لقد سافرت بين هذه القبائل والذين لم يقابلوا أو قابلوا فقط عدداً محدوداً جداً من الأجانب أو المسيحيين وكنت أستقبل استقبلاً حسناً حيث أن المسافر الذى يحمل رخصة من ابن سعود سيضمن أن يستمتع فى كل مكان بالحماية والمساعدة .

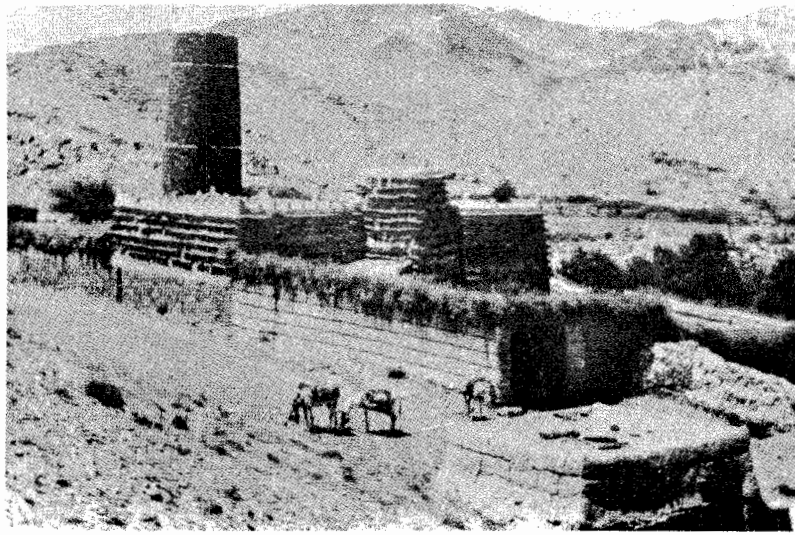
• • •

لقد تفضل السيد هـ . ب . فيلبى H. STJ. B. Philby مشكوراً وفحص وصحح عملية كتابة جميع الأسماء العربية بالحروف اللاتينية فى هذه المقالة وفى الخريطة . وأنا شاكر ومقدر له خاصة بعد أن رأيت كمية التصحيح التى احتاجتها المقالة . أيضاً أحب أن أشكره على وضعه تحت تصرفى رحلته غير المطبوعة من جيزان إلى الليث وعلى سماحه لى بإدخال أجزاء كبيرة منها فى خريطتى .

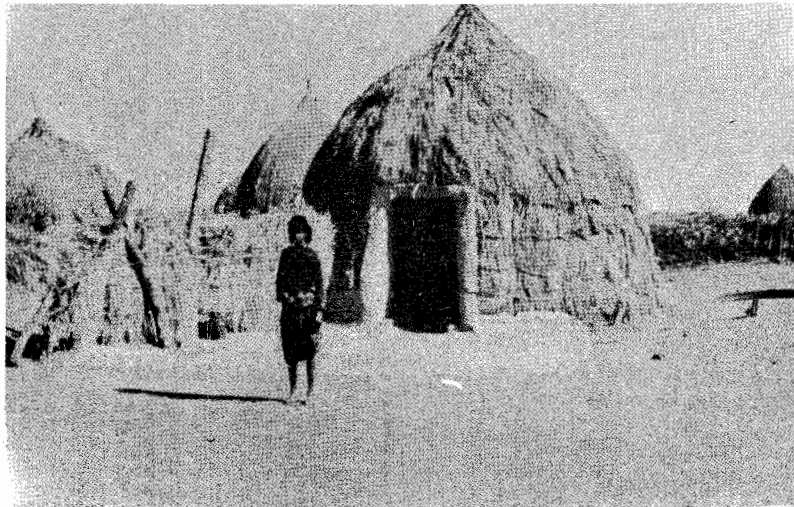
مجموعة من النباتات والتى جمعتها خلال هذه الرحلة توجد فى المتحف البريطانى (التاريخ الطبيعى) .

ملحوظة من المترجم :

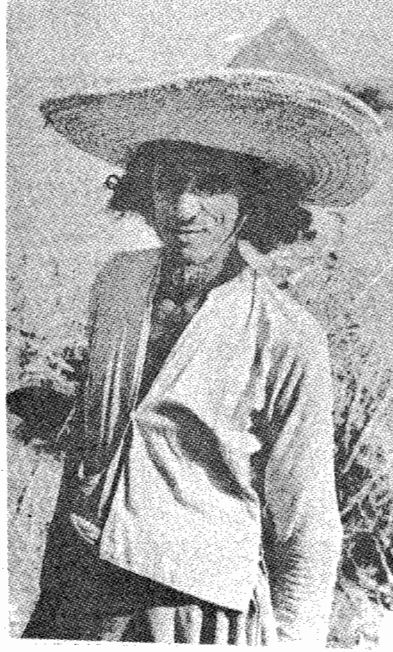
فى آخر المقالة يوجد بيان من راسم الخريطة G. W. Whibley عن كيفية رسمه للخريطة فى حوالى نصف صفحة ويمكن الإطلاع عليه بالرجوع إلى أصل المقالة .



مباني من الطين بها عدة صفوف من الأحجار الناتئة لتمنع التعرية (عسير)

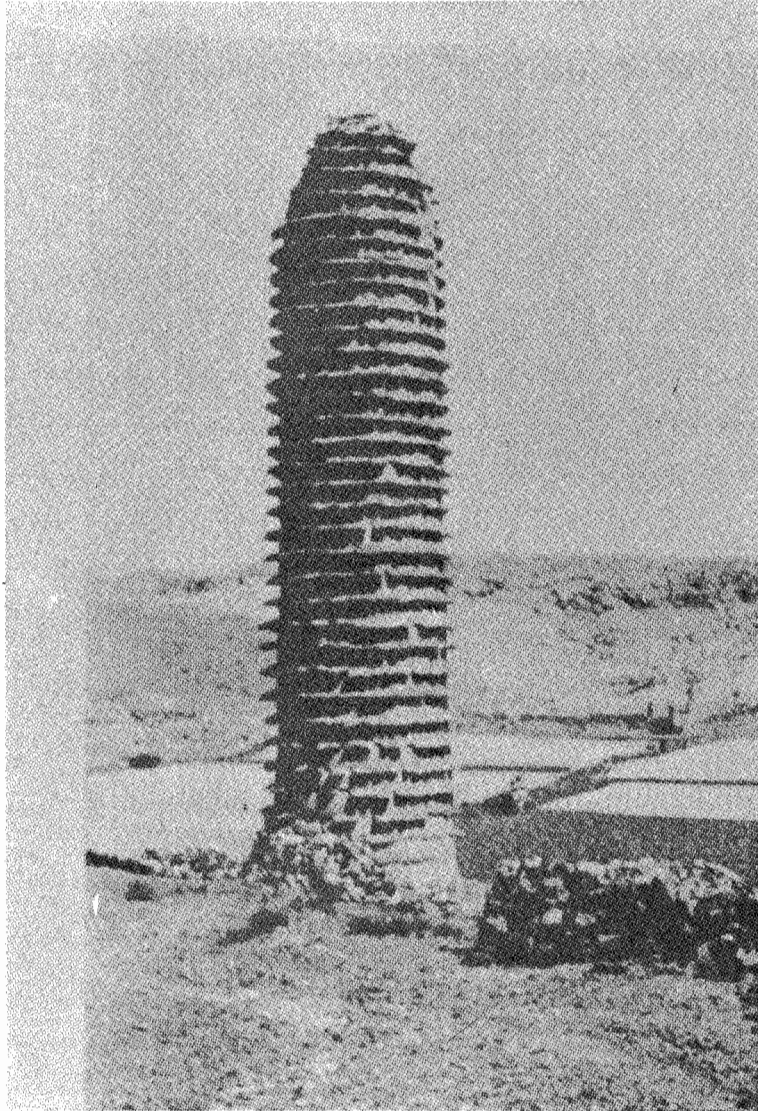


الأكواخ كمساكن في عهامة عسير



يلبس الناس في تهامة عسير قبعة مصنوعة من القش أو من سعف النخيل ذات حواف عريضة أو على شكل حوذة تغطي الرأس .





برج طيني مع وجود أحجار نائمة (بلاد قحطان)

الهوامش

ملحوظة: جميع هذه الهوامش من عمل المؤلف، عدا ما أشير إليه بأنه من عمل المترجم.

(١) Wilfred Thesiger, 1947, (A Journey Through The Tihama, The Asir , and The Hijaz Mountains), The Geographical Journal, 100 : 188-200.

(٢) من كتاب تسيجر Arabian Sands تبدو ترجمته كما يلي :

ولد ويلفرد تسيجر في عام ١٩١٠م في أديس أبابا وهو بريطاني الجنسية وقد درس في جامعتي إيتون Eton واكسفورد Oxford . وفي عام ١٩٣٥م عين في إدارة الشؤون السياسية للسودان وعند بداية الحرب انضم إلى قوة الدفاع السودانية وفيها بعد خدم في الحبشة وسوريا ومنذ الحرب العالمية الثانية سافر إلى عدة مناطق منها جنوب شبه الجزيرة العربية وكردستان، وأهوار العراق والهندكوش وكراكورم والمغرب وبلاد الحبشة . وخلال رحلاته كان يستعمل الحيوانات في تنقلاته أو يقطعها ماشياً (المترجم) .

(٣) لقد واجهت صعوبة في ضبط أسماء المواقع التي ذكرها تسيجر في رحلته وقد اعتمدت على الكتب التالية في محاولة لذكر الاسم الصحيح :

- على بن صالح الزهراني، ١٣٩١، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية : بلاد غامد وزهران، دار البيامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض .
- محمد بن أحمد العقيلي، ١٣٨٩، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية : مقاطعة جيزان (المخلاف السليمانى)، دار البيامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض .
- عمر غرامه العمروى، ١٣٩٩، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية : بلاد بارق، دار عكاظ للطباعة والنشر، جدة .

وبالإضافة لهذه الكتب فقد اتصلت بعدد من أبناء المناطق التي زارها تسيجر وقد ساعدوني مشكورين في ضبط أسماء المواقع ورغم ذلك فإننى أتوقع وجود بعض الأخطاء والتي سأكون شاكراً لو نبهت إليها . ولقد اثبت كتابة الأسماء بالحروف اللاتينية التي استعملها المؤلف لجميع الأسماء التي لم أتأكد من ضبطها .

(٤) هذا رأى المؤلف الشخصى والذي لا يعبر عن الحقيقة فهو يقصد الملتزمين بالإسلام إلتماً دقيقاً (المترجم) .

(٥) في يونيو ويوليو من عام ١٩٤٧م سافرت من القنفذة على جمل عبر الساحل حتى صيبا وجيزان ومن هناك عبرت أبو عريش إلى جبل فيفا ومنه إلى جبل بنى مالك وعبر جبال آل تليد عديمة الطرق إلى ظهران الجنوب. ومن ظهران الجنوب قمت بزيارة نجران ثم أبها وبعض المعلومات التي جمعت خلال الرحلة المذكورة في المقالة والخريطة إضافة لذلك انظر:

St. J. B. Philby (The Land of Sheba)

والمنشور في Geographical Journal عدد ٩٢ من عام ١٩٣٨ من صفحة ١ حتى ٢١ وأيضاً من صفحة ١٠٧ إلى ١٣٢، وانظر أيضاً Sheba's Doughters والصادر في لندن عام ١٩٣٩م.

- (٦) يمتد السرج (الشداد) الوحيد المستعمل في تهامة والمسمى الخي على كل ظهر الجمل.
- (٧) فيما يلي أسماء الأسواق المجاورة: خميس القنفذة، وجمعة وادي الأحسبة (اليمني)، وأحد القرماء، وإثنين وادي يابس (غامد)، وثلاثاء بنى عيسى، وأحد وادي الدوقة، وإثنين بنى سهيم، وأربعاء بنى بوهير، وخميس بنى منتشر، وأحد عوامر، وسبت شمran، وأحد بنى رزق، وثلاثاء عمارة، وسوق أهل سليمان: الأربعاء في النخل والخميس في الجوف.
- (٨) فيما يلي أسماء أسواق بارق: إربعاء الحميضة في العجمة، أحد آل موسى في القريحاء، جمعة الحميضة في ثروق، سبت الأصبعي في شهر، ثلاثاء بللسمر في المنظر.
- (٩) الأغنام من النوع ذو الذنب الأبيض السمين والرأس الأسود أما الماعز فهي سوداء أو بنية أو ملونة جزئياً. وتوجد في العرضى سلالة من الماعز بنية اللون ولها قرون تشبه قرون المارخور [ماعز جبل متوحش يعيش بين أفغانستان والهند] أما الغنم في الحجاز فهي بيضاء والماعز سوداء.

- (١٠) أسواق وادي حلى هي: أحد كباد، اثنين المغشوش، اربعاء السبطة، وخميس ربحا. وأسواق وادي يبا هي: ثلاثاء بللعير، اربعاء بنى يالا، جمعة ربيعة، وسبت سواريدة.
- (١١) التصرف هنا يقصد به البيع أو التنازل أو المناقلة لقاء بديل، ويقصد تسيجر - وهذا هو الواقع - أن الواحد من هؤلاء لا يبيع أرضه لمشتري من خارج أفراد القبيلة كما لا يبيع أرضه حتى لأحد من القبيلة إلا بعد موافقة أبنائه (المترجم).
- (١٢) يسكن وادي لومه Luma قبائل زبيد وسعدة؛ وفي وادي دنقه تسكن قبائل خيارة والمشيقي Mushaik وأشراف الحرازية؛ وفي وادي قنونه تسكن قبيلة بنى زيد، وفي وادي ناوان Nawan يسكن بدو الرواشيد؛ وتسكن قبيلة زبيد في وادي القرماء، وبنى هلال في وادي عمق.

- (١٣) خلال رحلتي عبر تهامة في عام ١٩٤٧م تأكدت بنفسى من هذه الظاهرة عندما شاهدت

خامس حصدة في وادى حلى في شهر يونيو.

- (١٤) من الأعشاب ذات الرائحة الحلوة : الريحان ، والشيخ ، والشار والقادى Kadi .
- (١٥) أيضا يشرب الأهالي في تهامة وخاصة تهامة عسير شراباً يدعى «قشر» وهو نقيع مصنوع من قشور حبوب القهوة.
- (١٦) يفضل البدو على كل حال الدخن على الذرة.
- (١٧) لا يلبس السراويل التحتية والتنورات المربوطة بالوسط إلا الأولاد المراد ختانهم خلال الاحتفالات قبل عملية الختان وأما لبس الخناجر وحمل السيوف فليس متوقفاً فقط على المختونين.
- (١٨) الختان بسلخ الجلد والذي يتم فيه إزالة الجلد نهائياً من السرة وحتى داخل الفخذين كان معمولاً به في تهامة قبل أربعين سنة ولا يزال بعض البدو يطبقون نفس العادة القديمة . ويتم العمل في تهامة وحتى وقت قريب بطريقة معدلة والتي يتم فيها سلخ كامل الذكر ولكن هذه الطريقة محرمة الآن بأمر من الملك ولكن يجوز إزالة عرض إصبعين من جلد الذكر بأن يتم ضغطه ثم قطعه في قطعتين واحدة علوية والأخرى سفلية ويتم تنظيف الجرح يومياً وربطه بورق الصالا Sala . ولقد تم قطع أيدي ثمانية أولاد عام ١٩٤٥م في وادى حلى لأنهم خضعوا لعملية الختان المحرمة.
- (١٩) يفصل حقل الحمم البركانية (اللافا) تهامة الشام عن تهامة عسير . ويجرى إدارة برك من القنفذة أما القحمة فمن جيزان وفي الماضي كانت تهامة تحت حكم الإدريسي .
- (٢٠) الممرات المؤدية إلى تهامة شبال أباها هي : ممر صمع (السودة) ، وقدها (العصامي) ، وشعار (وادى طيه) ، والجدع (بيحان) ، وجلجلا (بللسمر) ، وساقين (تنومه) ، وسانان (البناص) .
- (٢١) هنالك ثلاث قبائل تدعى «بنو مالك» في مناطق مختلفة هم : بنو مالك جنوب الطائف ، وبنو مالك في عسير ، وبنو مالك في عسير ، وبنو مالك على حدود اليمن في رأسى الواديين ضمد والدفاع .
- (٢٢) البناء بالأحجار على طول هذه الجبال يقوم على طريقة البناء بالحجر المرصوف ، وتغلا الفرج بكسر الحجاره لجعله أملس ناعماً كحجر مربع منحوت ، وغالباً ما توضع نماذج من الكوارتز الأبيض في الجدران وبعمامة حول النوافذ ، وأما ما بنى بالطين فتحاط نوافذه غالباً بالحص الأبيض أو بلون برتقالى .
- (٢٣) الفروع المستوطنة من قحطان هي : بنو بشر ، رفيدة ، شريف ، سنحان ، عبيدة ، وادعة ؛ وأما فروع شهران فهي : تمنية ، المسقى Masgi ، الجهراء ، سيحان Si-han ، وادى ابن هشبان Hashban ، ناحس Nahis ، كوت تندحه Kaut Tintaha ، عتود ، قاره Qara ،

بنى ماجر Bani Majar .

(٢٤) الممرات الموصلة إلى تهامة جنوب أبا هي : ضلاع ، جادله Jadla (عتود) ، القرون (تمنية) ، آل الخلف (وادي بيش) ، شراقيب Shuragib (رأس بيش) ، مفتاح الخشبة (وادي قاع) ، علب (حدود اليمن) .

(٢٥) هذه الجبال بركانية ولكن على قمة الممر والذي يرتفع ٨٠٠٠ قدماً [٢٤٣٨ متراً] فوق سطح البحر يوجد طبقة من الحجر الرملي القرنفلي اللون والذي تتكون مادته اللاحمه من الكاربونات .

(٢٦) هكذا أوردتها المؤلف ولم أجد في المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية - مقاطعة جيزان سوى آل غازي أو بنو الغازي (المترجم) .

(٢٧) من الأسواق: أحد هروب Harub ، اثنين الحقو Hagu ، ثلاثاء صبيا ، اربعاء أبو عريش ، خميس مغزا Maghza ، خميس الدرب ، سبت بيش (أم الخشب) .

(٢٨) نطاقات النباتات الطبيعية التقريبية هي : السلم والسمر والأثل والسدر تنمو إلى ارتفاع ٥٠٠٠ قدماً [١٥٢٤ متراً] ، وجيراد (Acacia senegal) تنمو ما بين ٥٠٠٠ و ٧٠٠٠ قدماً [١٥٢٤ - ٢١٣٤ متراً] ، والطلح ما بين ٦٥٠٠ و ٧٥٠٠ قدماً [١٩٨١ - ٢٢٨٦ متراً] ، والزيتون البرى ما بين ٥٥٠٠ و ٧٥٠٠ قدماً [١٦٧٦ - ٢٢٨٦ متراً] ، والعرعر ما بين ٦٥٠٠ و ٩٠٠٠ قدماً [١٩٨١ - ٢٧٤٣ متراً] ، والورود البرية ما بين ٨٥٠٠ و ٩٠٠٠ قدماً [٢٥٩١ - ٢٧٤٣ متراً] .

(٢٩) بعض من فروع قبيلة زهران هي الآتي : بيضان ، بنو حسن Hassan ، بلخزمر ، بنو كنانة بنو عمرو ، عمر ، عدوان Adhwan ، قريش .

(٣٠) لقد عدلت عن ترجمة هذا الجزء والذي يشكل حوالى الأربعة أسطر نظراً لأنه ليس مهماً للقارئ ويحتوى على معلومات خاصة بالمؤلف ويمكن الرجوع إلى الأصل للإطلاع عليه (المترجم) .